كتاب (قصة الزواج)

ألف هذا الكتاب «ادوارد وسترمارك» وترجمه الأستاذ عبدالمنعم الزيادى.. ويقع فى ٣٣٥ صفحة (ثلاثمائة وخمس وثلاثين صفحة).

ويتكون الكتاب من احدُ عشر فصلا ضافيا عن:

أصل الزواج- تعدد الزواج وسن الزواج- الزواج الداخلى- الزواج الخارجى- الزواج بالسلب- شروط الزواج- هدايا الزواج- طقوس الزواج- حقوق الزواج.

وفى كل فصل من هذه الفصول يطوف المؤلف بالموضوع من عصور البداوة إلى عصور الحضارة فى سائر البلاد والشعوب والعادات والتقاليد والقوانين والشرائع.

فالزواج اصطلاح للتعبير عن وضع اجتماعى بل وضع اقتصادى يمكن أن يؤثر بطرق عديدة فى حقوق الملكية.

وهو فى أصله طبيعة فطر الله الناس عليها لتواصل الحياة على الأرض بتواصل الأجيال.

وتكلم المؤلف عن مملكة الحيوان ووقف وقفة طويلة عند عالم الطيور لأن، غريزة الوالديه، تبلغ فيها درجة عالية. فإن أغلب الطيور- باستثناء تلك الطيور التى تنتمى إلى أسرة الدجاج وبعض الأنواع الأخرى- تبقى على التزاوج حتى يموت أحد الزوجين.

ويعتقد الدكتور «بريهم»- وهو دارس معروف لعادات الحيوان أن الطيور تحيا حياة أسرية مثالية، إلى حد أنه يعلن: «إن الزواج الأصيل لا يوجد إلا بين الطيور».

وإذا كانت الأفلام الحديثة تندر من اختبار الحموات للعرائس فإن المؤلف يسجل أن والد العروس فى الشعوب البدائية كان يربط العريس فى أرجوحة مملوءة بالنمل القارص ليختبر شجاعته على التحمل دون أن يطرف له هدب أو، تند، عنه كلمة: آه.

واحدة بواحدة.

وفى الفصل الثانى يعرض المؤلف مختلف الآراء فى الزواج فالصينيون يرون الزواج أمرا ضروريا حتى أنهم يزوجون الموتى أيضا فأرواح جميع الذكور الذين ماتوا أطفالا تزوج فى الوقت المحدد لأرواح الإناث اللائى متن فى هذه السن!!

وكان قدماء الإغريق يعتبرون الزواج أمرا ذا أهمية عامة وأهمية خاصة.. وكانت تتخذ الإجراءات ضد العزاب فى عدة جهات.

وتبعهم الرومان فقال شيشرون بفرض ضريبة على غير المتزوجين.

أما اليهود فيقول «يوسيفوس» (إن الصالحين يرفضون المتعة كما يرفضون الشر).

ولم يحدث أن رفض اليهود أحدهما أو كليهما.

ويؤيد «جريجور» العزوبة ويقول (لو بقى آدم طائعا لخالقه لعاش إلى الأبد فى حالة طهر عذرى ولعاش فى الفردوس نوعا من النبات غير الضار مع جنس من الكائنات الطاهرة الخالدة)

أقول فى غير تعصب، حواء أفضل.. لقد عرف آدم كيف يختار.

وإذا كان أهلنا فى الريف يؤثرون تزويج الابنة الكبرى أولا فإن المؤلف يسوق أمثلة من أمم مختلفة تؤيد هذا الاتجاه ففى اليونان يجب أن تتزوج البنات طبقا لترتيب السن. وفى ايرلندا يتحتم هذا ولا يزال ساريا فى حفلات الزواج الانجليزية والاسكوتلاندية وفى بلاد ويلز حتى ليحدث أنه إذا تزوجت البنت الصغرى قبل أخواتها اللاتى يكبرنها فلابد أن يرقصن جميعا فى حفل عرسها حافيات الأقدام باعتقاد أن هذا يقضى على سوء حظهن ويأتى لهن بالأزواج.

ولاتزال هذه العادة قائمة حتى أن شكسبير أشار إليها فى (ترويض النمرة).

وفى فصل (الزواج الداخلى) يتضح أنه الزواج داخل القبيلة الواحدة أو الأسرة الواحدة. ولقد أمر موسى بنات زيلدفيهاد (بأن يتزوجن من رجال ينتمون إلى قبيلة أبيهن حتى يبقى ميراثهن فى قبيلة أبيهن).

(وقد تزوج إبراهيم من أخته غير الشقيقة «سارة» وهى ابنة أبيه. ومثل هذه الزيجات لاتزال معروفة فى زمن حزقيل وإن كان قد وصفها بأنها بغيضة).

وأتذكر قول الرسول الكريم: (اغتربوا لا تضووا) أى لا تضعفوا صحيا.

وقد أثبت الطب الحديث مضار الزواج من الأقارب خاصة الادنين.

ويقول المؤلف (ويقضى القانون اليهودى بأن يتزوج الخال بنت أخته وإن لم يجز للخالة أن تتزوج من ابن أختها).

ولكن لا يمكن أن يتم مثل هذا الزواج بين يهود انجلترا لأن القانون الانجليزى يمنعه.. حين يسمح به القانون فى ألمانيا ونيويورك وبيرو وأوراجواى.

أما فرنسا وايطاليا وبلجيكا وهولندا والسويد فيمكن التغاضى عن المنع القانونى)ص ٧٩.

***

وتكلم المؤلف عن بكاء العروس الذى نسميه بعاطفية «دموع الفرح» والحقيقة أن العروس المصرية رقيقة فى بكائها ولعل هذا سر تشبيه أستاذنا المازنى، الرقة بدموع الوداع فى بيته الجميل:

أرق من دمعة التوديع طلعته وقد تحمل للتوديع خلصان

على أن العروس عندنا قد تبكى أو لا تبكى وتترك هذه المهمة لأمها أما فى الهند فالمؤلف يقول إن البكاء ضرورى ويقيمون صلاة خاصة من أجل بكاء العروس.

وكانت العروس الرومانية تهرب إلى حجر أمها وكان العريس يأخذها عنوة.

يدوبك..

يبدو أن الرومانى من الصعب عليه التخلى عن الغلظة حتى فى ليلة الزفاف.

وفى اليونان، اليوم، يبدأ موكب العروس من الكنيسة ومع ابتدائه تبدأ العروس البكاء وترفض الرحيل.

ويسود الاعتقاد فى ألمانيا بأن العروس إذا بكت أثناء الزفاف فإنها ستكون سعيدة فى حياتها الزوجية.

وتتفق الشعوب جميعا على ضرورة رضا الوالدين على الزواج فقد نصت جميع الملل والشرائع والأعراف على احترام الوالدين، وانسحب هذا الاحترام على وجوب رضاهم على زواج الأبناء.

وقديما كان على الرجل أن يقدم لعروسه أمام شاهدين قطعة من النقود وهو يقول (كونى، لى).

ولكن حدث فى العصور الوسطى أن أصبح المعتاد أن تتم عملية النقود بتقديم خاتم عادى بدلا من قطعة النقود. وظلت هذه العادة سائدة إلى اليوم.. مع تفاوت فى الخواتم.

وقد دأب المؤلف فى هذا الكتاب على تفسير واحد لا يبغى عنه حولا.. إنه يرجع كل شىء إلى فكرة (الثمن) القديمة.. فخاتم الزواج وهدية العروس بعد الزفاف والمهر أو الصداق.. والبائنة أو الدوطة.. جميعها فى رأى المؤلف صور من صور الشراء فى العصور البدائية ولكن فى شكل آخر..

وآراها، خلافا، له، علامة (مسئولية) أو مشاركة فى أول الحياة، ودليل جدية.. وبغير هذا يصبح الزواج سهلا بلا مجهود وهنا يكون التحلل منه بالطلاق أو الزهد أو الهجر أو أى صورة من الصور، سهلا أيضا بل أشد سهولة.

والدليل الآخر عندى أن ما ينفق فى مصر على جهاز العروس يفوق المهر أضعافا.. وعلى الجانب الآخر أعفى قانون نابليون الوالدين من امداد ابنتهما بالبائنة (الدوطة). وإن كانت باقية لا تزال.

وعن طقوس الزواج يأخذ فى عرض الرموز وأولها المصافحة تعبيرا رمزياً عن الاتحاد، ولا يكتفى بالمصافحة فى بعض البلاد الأوربية كبولندا وبلغاريا والبرتغال وعدة أنحاء من الهند بل إن يدى العروسين تربطان معا.

- فى مصر يبسط المأذون منديلا حريريا على يد العريس ويد والد العروس ثم يظفر المأذون بالمنديل الجميل فى خفة دم مصرية

وعند قبائل التاندى فى افريقيا الشرقية البريطانية يربط معصم كل من الطرفين ببعض الأعشاب.

وبالطبع يندرج خاتم الخطوبة تحت هذا الهدف.

وفى الأفراح اليوم نرى فى الكوشة العروسين يتناول كل منها رشفة من كوكب الآخر..وفى افتتاح البوفيه يطعم كل منهما الآخر من طبقة والطورطا شرحه..

ويبدو أنه لا جديد تحت الشمس فقد كان العروسان عند الاغريق يتقاسمان كعكة الزفاف.. أما فى روما فقد كانت الكعكة بعد صنعها توهب للإله جوبيتر ثم يأكل منها العريس والعروس بحضور المدعوين كشهود.

وفى السويد اعتقاد أنه إذا أكل العريس والعروس قضمه واحدة من الخبز أحب كلاهما الآخر حبا دائما.

وفى ألمانيا إذا شرب العروسان (حساء الصباح) بالملعقة نفسها نعما معا بحياة زوجية هادئة.

وفى ألمانيا أيضا يحتفلون بليلة الزفاف ومن طقوس الاحتفال إلقاء جميع الأوانى الفخارية خارج بيت العروس!! واليهود كذلك يكسرون الكئوس فى حفلات الزفاف يكسرها العريس بقدمه أو يكسرها الحاخام!!.. أذيه.

ومن طقوس الزواج عند الصينيين أنهم يعلقون برأس فراش الزوجية ثلاثة أشرطة من الورق الأحمر تكتب عليها التمنيات الطيبة مثل (مائة ولد وألف حفيد لكما)... ويبدو أن الدعاء مستجاب بدليل تعداد الصين.

نحمد الله أن هذه التمنيات الطيبة غير واردة فى مصر وإلا انتحر جهاز تنظيم الأسرة أو نظر هو حوله.

من يقرأ الكتاب يشعر أن الشعوب جميعا على تفاوت درجة تحضرها، تلتقى عند عادات ساذجة. ولعل هذه (السذاجة) لون من الراحة بعد إعمال الذهن فى نواحى الحياة الأخرى ومنهاالتفكير فى الزواج.

ومن طقوس الزواج عند الشعوب البدائية إلقاء الحبوب أو الفاكهة على العروسين أو على العريس وحده. وفى اليونان قديما كانت العروس عند دخولها بيت العريس، يحملها حتى المدفأة ثم يمطرها بالبلح والتين والبندق والعملات الصغيرة.

وفى البلاد السلافية يلقى القمح وغيره من الحبوب على العروسين أو على موكب الزفاف كله.

صور مختلفة من (البدره) ولكن ليس كبدرة الخديوى إسماعيل من خير مصر. لقد قال وبحق انه آخر من ينثر الذهب ويبدو أنه أول من نثر الذهب أيضا.

ويرى «مانهاردت» أن عادة إلقاء الحبوب أو البذور أو الفاكهة الجافة فوق العروس إنما منشؤه شعور الرابطة الوجدانية بين البشر والأعشاب حاملة البذور والمقارنة بين ثمرة الجسد وثمرة الحبوب.

وفى مراكش يعتقدون أن العنب والتين مما يلقى فوق العروس يقصد به أن يجعل كل شىء حلوا أو يجعل العروس حلوة عند أسرة العريس أو لمنع عين الشر عنها.

ومن طرائف طقوس الزواج أن العروس عند براهمة البنغال الشرقية تضع على فم العريس قفلا وتدير فيه المفتاح (لتبين بهذا أن باب الكلام السيىء قد أقفل).

وعندما يربط القس يدى العروسين فى ألمانيا تحاول العروس بطريقة صورية أن تجعل يدها العليا بينما يحاول العريس فعل ذلك وغالبا ما يحدث صراع بين الأيدى.. ربنا يشفى على رأى أولاد البلد بعذوبتهم التقليدية.

ومن طقوس الزواج الضوضاء الهائلة والموسيقى الصاخبة لونا من التطهير!!.

الآن فهمت سر الميكروفونات العالية فى أفراحنا. إنها لون من التطفيش أو مداراة الأصوات الغنائية الهزيلة بعيوبها.

ويكثر إطلاق النار فى أفراح الريف بأوربا وكذلك فى ريفنا.

ويثير المدعوون لحفلات الزفاف عند الشعوب السلافية ضوضاء صاخبة خارج غرفة العروس.. وكذلك فى ريفنا.

وأهم طقوس التطهير فى حفلات الزفاف المراكشية عادة خضاب العروسين بالحناء ويعتبر الخضاب مطهرا أو حاميا.

ومما يلفت النظر أن المؤلف وهو مسيحى يقول: (إن كتاب العهد الجديد قد اعتبر الزواج بواحدة هو الشكل الطبيعى أو المثالى للزواج إلا أنه لم يحرم صراحة تعدد الزوجات إلا فى حالة القس أو الأسقف).

وقد تكلم لوثر فى عدة مناسبات عن تعدد الزوجات فى تسامح، ولو..

***

هذه قصة الزواج.. ويبدو أنها لم تتغير كثيرا لأن من الأشياء الثابتة ما تنطبق عليه الآية الكريمة: (لن تجد لسنة الله تبديلا)..